مكتبتى ٤٤

حكاية طارق وعلاء

وقصص أخرى

تأليف : يعقوب الشارونى

رسوم : نســــيم

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة : ج . م . ع .

كانَ قد انقضَى شهرٌ على التحاقِ علاء بالمدرسةِ الابتدائيةِ، عندما فتحَ مُديرُ المدرسةِ بابَ الفصلِ، ودخلَ وقد أمسكَ فى يدِهِ صبيًّا فى سنِّ علاء.

كانَ المديرُ يجذبُ الصبىَّ وكأنه يقودُهُ إلى الداخلِ.

قالَ المدُيرُ : «هذا هو زميلكُم الجديدُ».

وحملقَ كلّ التلاميذِ يتأمَّلونَ الشَّعْرَ المُهَوَّشَ لذلك الزميلِ الجديدِ، وأزرارَ قميصِهِ المفكوكةَ، وقد ظهرَتْ أطرافُ ذلك القميصِ خارجَ بنطلونِهِ، أما رباطُ الحذاءِ فلم يكُنْ مربوطًا.

وبحثَ المُديرُ بعينَيْهِ عن مقعدٍ خالٍ، فلم يجدْ إلا واحدًا فى الصفِّ الخلفىِّ.

ومرةً ثانيةً أمسكَ المُديرُ بذراعِ التلميذِ الجديدِ، الذى كان ينظرُ إلى الفراغِ، وقادَهُ إلى ذلك المقعدِ الخالى وهو يقول له: «هذا هو مقعدُكَ، ولا تلعبْ فى الفناءِ إلا بعدَ انتهاءِ وقتِ الدراسةِ».

وتأمَّلَ علاء زميلَهم الجديدَ وقالَ لنفسِه: «لو كانَ زميلُنا هذا قد اهتمَّ بأزرارِ قميصِهِ وترتيبِ شعرِهِ، لما شعرْنا أنه يختلفُ عنَّا فى شىءٍ».

لقد كانَتْ ملابسُهم جميعًا، تفقدُ نظامَها بعدَ نصفِ ساعةٍ فقط من اللعبِ فى الفناءِ.

فمنذُ بدايةِ العامِ الدراسىِّ، وكلّ مَنْ فى الفصلِ يتحدَّثونَ عن زميلٍ جديدٍ، سيأتى بعدَ أسابيعَ، لديه

صعوباتٌ فى النطق وفى التحكم فى حركات جسمه وأصابعه.لكنهم لم يتوقَّعوا فى أول يوم له بالمدرسة، أن يجدوه على هذا النحو من الفَوْضَى ، بل الإهمال.

• • •

وعندما عادَ علاء إلى البيت ، لاحظَتْ والدتُهُ أنه شاردٌ على غير المعتاد، فسألتْهُ :

« هل حدثَ شىءٌ جديدٌ فى المدرسة يا علاء؟».

قال علاء :« جاءَنا زميلُنَا الذى حدَّثَتْنا عنه (أبلة مريم) « الاخصائيةُ الاجتماعيةُ» .. ثم توَقَّفَ عن الحديث..

سألَتْهُ والدتُهُ : «كنتَ تُريدُ أن تُكملَ كلامَكَ، ماذا كنتَ تريدُ أن تقولَ؟»

وتَردَّدَ علاء لحظةً قبلَ أن يقولَ : « فى الحقيقةِ يا أمِّى .. لقد شعرْتُ بالخوفِ منه!!»

وأحسَّتِ الأمُّ بنوعٍ من الصدمةِ عندما سمعَتْ هذه الكلمةَ، لكنها فضَّلَتْ عدمَ إلقاءِ المزيدِ من الأسئلةِ على ابنِها فى تلك اللحظةِ.

• • •

وعندما كانَ عـلاء يتناولُ إفطارَهُ من الحليبِ والبيـضِ فى صبـاحِ اليومِ التالى ، توقَّفَ لحظـةً عن المضغِ ، ثم قـالَ لأمِّهِ :

«إنه ولدٌ مثلى ، ولا أعرفُ لماذا أخافُ منه !»

ولم تجدِ الأمُّ نفسَها فى حاجةٍ إلى أن تقولَ أىَّ شىءٍ، إلا أنها ابتسمَتْ وهى تضعُ يدَها برفقٍ على كتفِ ابنِها، كأنما تشجِّعُهُ أن يتغلَّبَ على مخاوفِهِ.

• • •

فى نفسِ ذلك اليوم، دخلَتْ «أبلة مريم» الاخصائيةُ الاجتماعيةُ إلىَ الفصلِ، وقَالَتْ:

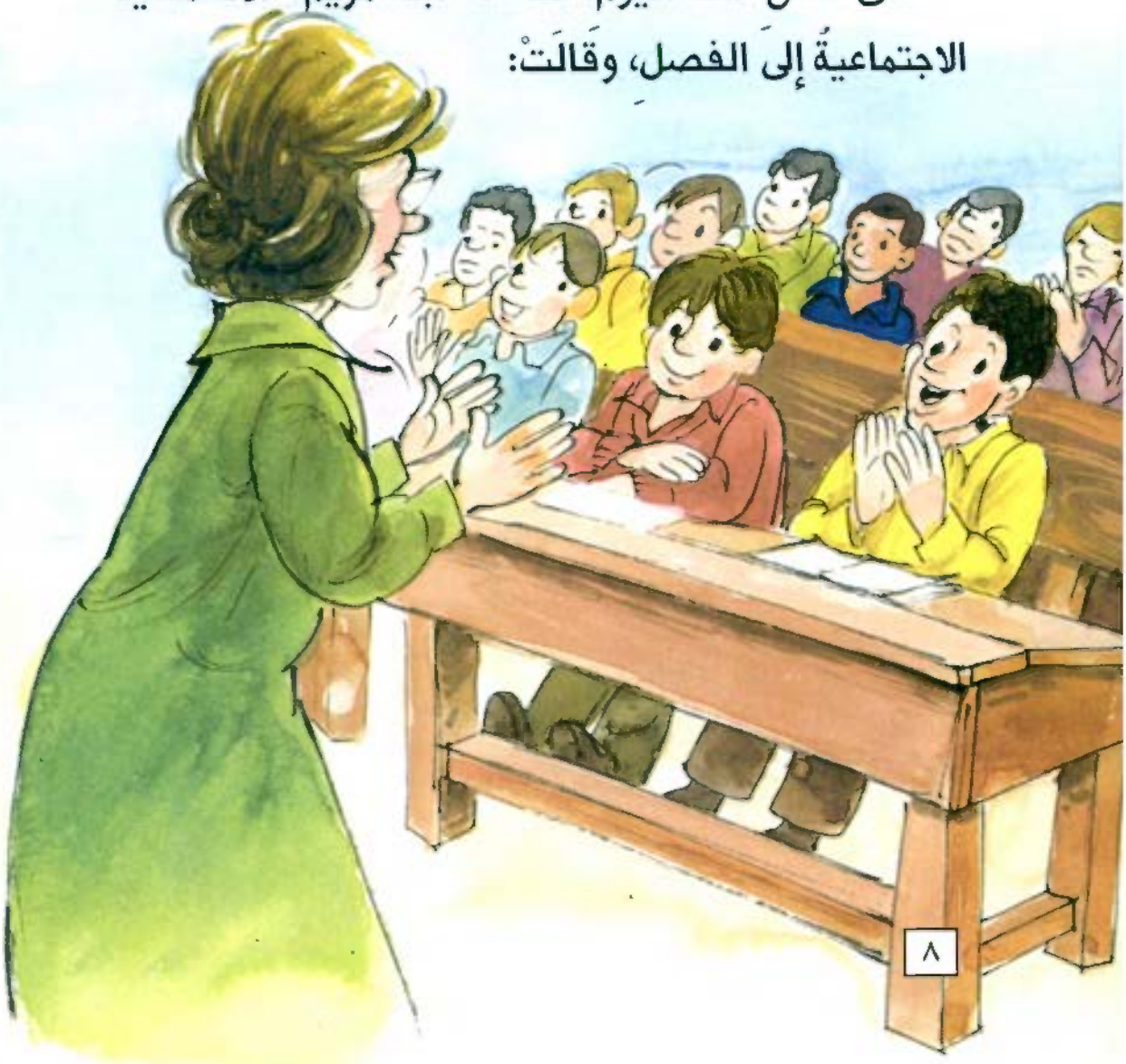

«كلُّنا نرحِّبُ بصديقِنا الجديدِ طارق».

وبدأتِ التصفيقَ.

وبغيرِ حماس، شاركَها بقيةُ التلاميذِ تصفيقَها.

قالَتْ أبلة مريم: «صديقُنا طارق جاءَ إلى المدرسة مُتأخِّرًا شهرًا عن بدايةِ الدراسة، وقد فاتَتْهُ دروسٌ كثيرةٌ، وكُلُّنا طبعًا على استعدادٍ أن نساعدَهُ لتعويضِ ما فاتَهُ من دروس».

وتنبَّهَتْ كل حواسِّ علاء لكلماتِ أبلة مريم.

• • •

وما إنْ دقَّ جرسُ فترةِ الراحةِ (الفسحة)، حتى أسرعَ علاء إلى مكتبِ أبلة مريم.

رأتْهُ أبلة مريم عندَ بابِ غرفتِها، فنادَتْهُ قائلةً:

«ادخلْ يا علاء.. هل تُريدُ أن تقولَ لى شيئًا؟»

قالَ علاء: «لم أتعوَّدْ أن أتجنَّبَ أىَّ زميلٍ لى فى الفصل..» ثم توقَّفَ عن إتمامِ بقيةِ حديثِه..

وفهمَتْ أبلة مريم بقيةَ عبارةِ علاء،فقد اتصلَتْ بها والدتُهُ تليفونيًّا فى صباحِ ذلك اليوم ، وقالَتْ لها:

«أنا أشعر بالقلق بسببِ خوفِ علاء من زميلِهم الجديدِ».

وقد أجابَتْها أبلة مريم قائلةً: «لقد سبقَ أن التحقَ طارق بمدرستَيْن مخصصتَيْن للأطفالِ ذوى الاحتياجاتِ الخاصة، وعاشَ مع أطفالٍ حالتُهم أسوأ من حالتِه، وكانَ من الصعبِ أن يُقِيمَ مع أولئك الزملاءِ علاقاتِ صداقةٍ، أو أن يجعل منهم مُشاركين له فى اللعبِ.

وعندما جاءَ إلى مدرستِنا، اصطحبَ معه شعورَهُ بالعزلةِ بسببِ تلك التجربةِ، وهو يحتاجُ إلى بعضِ الوقتِ ليتآلفَ مع بقيةِ التلاميذِ، وليصبحوا قدوةً له فى سلوكِه ومظهرِه».

وأجابَتْها أمُّ علاء فى التليفونِ قائلة: إن علاء شخصٌ اجتماعىٌّ جدًّا، من السهلِ أن يتعرَّفَ على أىِّ شخصٍ وأن يصادقَهُ.

كما أنه شديدُ الحُنُوِّ على مَنْ يشعرُ أنه فى حاجةٍ إلى مساعدتِه.

وعندما كانَ فى الرابعةِ من عمرِه، كثيرًا ما كانَ يأخذُ

بعضَ طعامِه، ويقدِّمُهُ إلى القططِ التى تعوَّدَتْ أن تقضِىَ وقتَها على سلالم البيت».

وعندما قالَ علاءَ لأبلة مريم: إنه لم يتعوَّدْ أن يتجنَّبَ أىَّ زميلٍ، فهمْتُ أنه يعانى من صراع مع نفسِه، فهو لا يرضى أن يتركَ زميلاً فى حاجة إلى معاونته، وفى نفس الوقت، لايعرفُ، أولايستطيعُ،أن يبدأ الخطوةُ الأولى مع زميلِهم الجديد.

قالَتْ له أبلة مريم: «أظنُ أن زميلَكَ الذى يجلسُ على المقعدِ المجاور لك اسمُهُ إيهاب».

أجابَ علاء: «كَثيرًا ما يأتى إيهاب إلى المدرسةِ مُتأخِّرًا فى الصباح..».

قالَتْ أبلة مريم: «لأن بيتَهم بعيدٌ جدًّا عن المدرسةِ، وقد استطاعَ والدُهُ أن ينقلَهُ إلى مدرسةٍ قريبةٍ من بيتِه».

قال علاء فى قلق: «هل معنى ذلك أنه لن يكون هناك مَنْ يجلسُ بجوارى؟»

قالَتْ أبلة مريم: «يُمكِنُكَ أن تختارَ أحدَ زملاءِ الفصل، وتُخبِرَنى باسمِه.

وسأقومُ بترتيبِ الأمرِ مع المديرِ، ليجلسَ بجوارِك الزميلُ الذى تختارُهُ».

وخرجَ علاء من غرفة أبلة مريم وهو يسألُ نفسَهُ: «هل سيكونُ من الصوابِ أَن أطلبَ أن يجلسَ طارق بجوارى ؟!».

وفى نهايةِ ذلك اليومِ الدراسِىِّ، استطاعَ علاء أن يجدَ الإجابةَ عن تساؤلِه.

فقد انصرفَ بقيةُ التلاميذِ، ولاحظَ علاء أن «طارق» قد

تَخلَّفَ عنهم. كان « طارق » يحاول أن يُزرِّرَ أزرارَ قميصه، لكنَّ أصابعَهُ لم تكن تطاوعُهُ على أن يقومَ بهذه العمليةِ بسهولةٍ وسرعةٍ.

ووجدَ علاء نفسَهُ يذهبُ إلى طارق ويقولُ له: « أنت تقومُ بتَثْبيتِ زرارَيْن، وأنا أقومُ بتَثْبيتِ زرارَيْنِ آخرَيْن ».

ولم يعترضْ طارق.

وفى نفس الوقت ، شعرَ علاء أنه تَجنَّبَ إشعارَ طارق بأنه لا يستطيعُ أن يهتمَّ بنفسه كما يجبُ.

وببطء، ظهرَت ابتسامةٌ على وجه طارق وهو يقولُ فى كلماتٍ مُتعثِّرةٍ : « أنتَ صاحبى ».

وفى تلك اللحظةِ، قرَّرَ علاء أن يطلبَ فى صباحِ اليومِ التالى من أبلة مريم، أن تنقلَ « طارق » ليجلسَ بجوارِه.

• • •

وما إنْ دخلَ علاء البيتَ، حتى اندفعَ يبحثُ عن والدتِه وقد تهلَّلَ وجهُهُ وهو يقولُ: « طارق قالَ لى اليومَ إننى صديقُهُ ». ثم أضافَ فى فخرٍ: « لقد عاونْتُه فى تثبيتِ أزرارِ قميصِه.. ».

• • •

ومنذُ صباحِ اليومِ التالى، جلسَ طارق فى المقعدِ المجاورِ لعلاء.

وبعدَ يومَيْن، عادَ علاء إلى المنزلِ يحكى لأمِّهِ قائلاً: «اليومَ حاولْتُ تعليمَ طارق كيف يربطُ بنفسهِ رباطَ حذائهِ».

• • •

أما الشىءُ الذى لم تكنْ تتوقَّعُهُ والـــدةُ علاء ، فهـو ما أخبرَهـــا بــه ابنُها بعدَ عشـرةِ أيـامٍ مـن جلـوسِ طارق بجوارِه.

لقد جلسَ علاء مع والدتِه، يحكى لها آخرَ أخبارِ صداقتِه مع طارق.

فقالَ لها: «تصوَّرى يا أمِّى، أنه فى حصةِ الرسمِ، صباحَ اليوم، طلبَ منَّا المدرسُ أن نرسمَ حديقة ، بها عصافير فوقَ شجرةٍ. وكما تعوَّدْتُ، رسمْتُ العصفورَ على شكلِ قوسَيْنِ صغيرَيْنِ يلتقيانِ عند طرفَيْهما.

وفوجئْتُ بطارق يتأمَّلُ رسمى، ثم يمدُّ يدَهُ وهو يُمسِكُ بقلمِه، ورسمَ لى رأسَ الطائرِ ومنقارَهُ، كما رسمَ بعضَ الريشِ على الجناحَيْنِ».

ثم أضافَ فى إعجابٍ ودهشةٍ: إنه يرسمُ أحسنَ منِّى بكثيرٍ يا ماما!.

قالَتِ الأمُّ لابنِها: «هذا يؤكّدُ ما قالَتْه لكَ أبلة مريم.. لقد اكتَشَفت اليومَ أحدَ مواهبِه. إنه قد يختلفُ عنك، لكنَّ مجموعَ قدراتِه ليسَتْ أقلَّ من قدراتِ أىِّ طفلٍ آخرَ».

• • •

ويومًا بعدَ يوم ، تغيَّرَتْ هيئةُ طارق على نحو شبه كامل. لقد أصبحَ شَعْرُهُ مُرتَّبًا، وملابسُهُ مُهندَمَة، ورباطُ حذائهِ مربوطًا.

كما بدأتْ طريقةُ كتابتِهِ للحروفِ والأرقامِ تتحسَّنُ على نحو واضح، نتيجةَ معاونةِ علاء المستمرةِ لصديقِهِ طارق.

وفى نفسِ الوقتِ، كانتْ قدراتُ علاء فى الرسم تتقدَّمُ، بفضلِ الخطوطِ التى كانَ طارق يُضيفُها أحيانًا لرسمِ علاء، أو نتيجةَ الملاحظاتِ التى كانَ يسمعُها من طارق.

• • •

وذاتَ يوم تأخَّرَ طارق عن موعدِ بدءِ الدراسة، فشعرَ علاء بالقلق.

وانقضَى اليومُ الدراسىُّ ولم يأتِ طارق إلى المدرسة، فتشتَّتَ ذهنُ علاء، ولم يستطعِ التركيزَ مع مُدرِّسةِ الفصلِ بقيةَ اليوم.

وعادَ علاءَ إلى المنزلِ، ليحكىَ لأمِّهِ خبرَ تغيُّبِ طارق.

قالتِ الأمُّ فى محاولةٍ لتهدئةِ علاء :

« هل يوجدُ تليفونٌ عندَ أسرةِ طارق؟ ».

قالَ علاء: «لقد أخبرْتُك أننى قابلْتُ أختَهُ ذاتَ صباح وهى تصطحبُهُ إلى المدرسةِ، وعندما عرفَتْنى قالَتْ لى: طارق لا يتوقَّفُ عن الحديثِ عنكَ فى البيتِ.

ثم كتبَتْ لى رقمَ تليفونِ بيتهم، وقالَتْ لى: هذا هو رقمُ تليفونِ منزلِنا، لتتصلَ بنا فى أىِّ وقتٍ تشاءُ».

ثم أسرعَ علاء إلى حقيبتِهِ المدرسيةِ، وأخرجَ كُرَّاسَ الواجباتِ المنزليةِ، وفتحَ صفحتَهُ الأخيرةَ وهو يقول: «هذا هو رقمُ تليفونِ بيتِ طارق».

قالَتِ الأمُّ: «تستطيعُ أن تتصلَ تليفونيًّا، وتطمئنَّ على صديقِكَ».

وكانَتْ هذه هى المرةُ الأولى التى تشجِّعُهُ فيها أمُّهُ على الاتصالِ بأحدِ «أصحابِه».

وعندما عرفَ من المكالمةِ أن «طارق» مُصابٌ بنزلةِ بردٍ، وأنه يُعانى من الزكامِ والكُحَّةِ، قالَ لأختِ طارق فى التليفونِ: «هل أستطيعُ أنَ أسمعَ صوتَهُ؟».

قالَتِ الأختُ: «إنه نائمٌ الآنَ».

قالَ علاء: «قولى له إننى سألْتُ عنه».

• • •

لكنَّ الصورةَ انعكسَتْ تمامًا بعدَ شهرَيْن.

فذات صباح، بحثَ طارق عن علاء فى فِناءِ المدرسةِ قبلَ الحصةِ الأولى، فلم يجِدْهُ..

وعندما دخلَ وجلسَ فى مكانِهِ فى الفصل ، لم يجدْ علاء بجوارِهِ كما اعتادَ.

وفى ذلك اليوم، لم يستطعْ طارق أن يشتركَ فى أىِّ نشاطٍ، ولا أن يجيبَ على أىِّ سؤالٍ، وعادَ حزينًا قَلِقًا إلى البيتِ.

وفهمَتْ أختُ طارق الكبرى السببَ فى قلقِ أخيها، فقالَتْ له:

«إننى أعرفُ رقمَ تليفونِ أبلة مريم».

وفى الحال، اتَّصلَتْ بأبلة مريم.

قالَتْ لها أبلة مريم: «أنا لم أعرفْ أن «علاء» لم يذهبْ إلى المدرسةِ اليومَ إلا من مكالمتِكِ الآنَ. وسأحاولُ الاتصالَ ببيتِ علاء، لأعرفَ سببَ عدم مجيئه اليومَ إلى المدرسة».

وكانَتِ المفاجأةُ قاسيةً على أبلة مريم، عندما جاءَها صوتُ شخص يعانى من الإرهاقِ والألم. كانَ والدُ علاء يقولُ لها فى التَّليفونِ:

«ألاتعرفين ماالذى حدثَ؟! لقد كِدْنا نفقد «علاء» اليومَ».

وفى فزع سألَتْهُ أبلة مريم: «ما الذى حدثَ؟».

أجابَ الوالِدُ بصوتٍ تكادُ الدموعُ تخالطُه: «كانَ يعبرُ الطريقَ أمامَ البيتِ، وهو فى طريقِهِ صباحَ اليومِ إلى

المدرسةِ، عندما انحرفَتْ سيارةٌ عن طريقِها، وكادَتْ تقتلُهُ.

لكنْ من رحمةِ اللهِ أنها احتكَّتْ به فقطْ، فسقطَ على الأرض بعنفٍ، وهو الآنَ فى المستشفى».

سألَتْ أبلةَ مريم فى انزعاجٍ: «أرجو أن يكونَ الحادثُ قد مرَّ بسلامٍ».

قالَ الأبُ: «لقد كُسِرَتْ ساقُهُ اليمنى، وأصيبَ ذراعُهُ الأيمنُ بكدماتٍ شديدةٍ. وهو الآن تحتَ الملاحظةِ الطبيةِ، خشيةَ أن يكونَ هناك أى نزيفٍ داخلىٍّ».

• • •

ولم تعرفْ أبلة مريم ما الذى يجبُ أن تفعلَهُ: هل تُخبرُ أسرةَ طارق بما حدثَ لعلاء، فتُثيرَ فزعَ طارق وقلقَهُ على صديقِهِ، الذى أصبحَ مصدرَ طمأنينتِهِ؟أم تسكتُ، فيتزايد قلقُ طارق لأنها لم تتَّصِلْ ببيتِهم كما وعدَتْ أختَهُ؟!

وبينما هى فى حيرتِها ، سمعَتْ جرسَ تليفونِها يرنُّ، وعلى الطرفِ الآخرِ من الخطِّ، سمعَتْ أختَ طارق تقولُ :

«طارق يرفضُ أن يأكلَ أو ينامَ.. إنه يُريدُ أن يطمئِنَّ على صديقِهِ علاء، وأن يعرفَ سببَ غيابِهِ».

قالَتْ أبلة مريم لأختِ طارق: «سأخبرُكِ بالحقيقةِ، لكنْ ترفَّقى عند نقلِها إلى طارق».

وفى نفسِ تلك الليلةِ، كانَ طارق مع والدتِهِ وأختِهِ يقفونَ بجوارِ فراشِ علاء فى المستشفى، بعدَ إصرارِ طارق، عندما عرفَ من أختِهِ ما حدثَ لعلاء، على الذهابِ فى الحالِ لرؤيةِ صديقِهِ فى المستشفى.

قالَتْ والدةُ طارق لوالدةِ علاء: «ابنى طارق يعيشُ بمشاعرِهِ الحسَّاسةِ وعواطفِهِ العميقةِ مع مَنْ يطمئنُّ إليهم، أكثرَ مما يتعاملُ معهم بأساليبِ السلوكِ التى يفرضُها المجتمعُ».

وفى اليومِ التالى، رفضَ طارق الذهابَ إلى المدرسةِ، وأصرَّ أن يجلسَ منذُ الصباحِ بجوارِ سريرِ صديقِهِ بالمستشفى.

كانَ يملؤه خوفٌ دفين من أن يفقدَ أقربَ الناسِ إلى نفسه ومشاعره.

قال علاء لطارق: «الأطباءُ اطمأنوا إلى أنه لم يحدثْ لى شىءٌ خطيرٌ».

ولم يُجبْ طارق، بل كانَتِ الدموعُ تنسابُ من عينَيْهِ وهو يُشيرُ إلى ساقِ علاء التى وضعوها فى الجبس، وذراعِهِ المربوطةِ بالأربطةِ البيضاءِ، وجانبِ وجهِهِ المُصابِ بخدوشٍ وجروحٍ كثيرةٍ حمراء وسوداء اللونِ!!

• • •

ولم تُفلِحْ محاولاتُ والدةِ طارق أو أختِهِ فى أن تُقنعَهُ بمغادرةِ المستشفى عند انتهاءِ موعدِ الزيارةِ، إلا بعدَ أن غادرَتْها والدةُ علاء ووالدُهُ وإخوتُهُ.

• • •

وشهدَتْ غُرَفُ المستشفى فى الأيام التاليةِ مشاهدَ يندرُ أن تحدثَ فى أىِّ مستشفى.

كانَ طارق، الصديقُ الصغيرُ الذى لم يتجاوزْ عمرُهُ سبعَ

سنوات، هو الذى يستدعى الممرضاتِ عندما يكونُ علاء فى حاجةٍ إلى معونتهنَّ، وكانَ يجلسُ بجوارِ علاء يحاولُ أن يساعدَهُ عندَ تناوُلِ الطعامِ، رغمَ عدمِ سيطرةِ طارق الكاملةِ على ذراعَيْهِ وحركاتِ أصابعِهِ.

كان « علاء » يقول لهن:
« لا أريدُ أن يُساعِدَنى أحدٌ إلا طارق ».

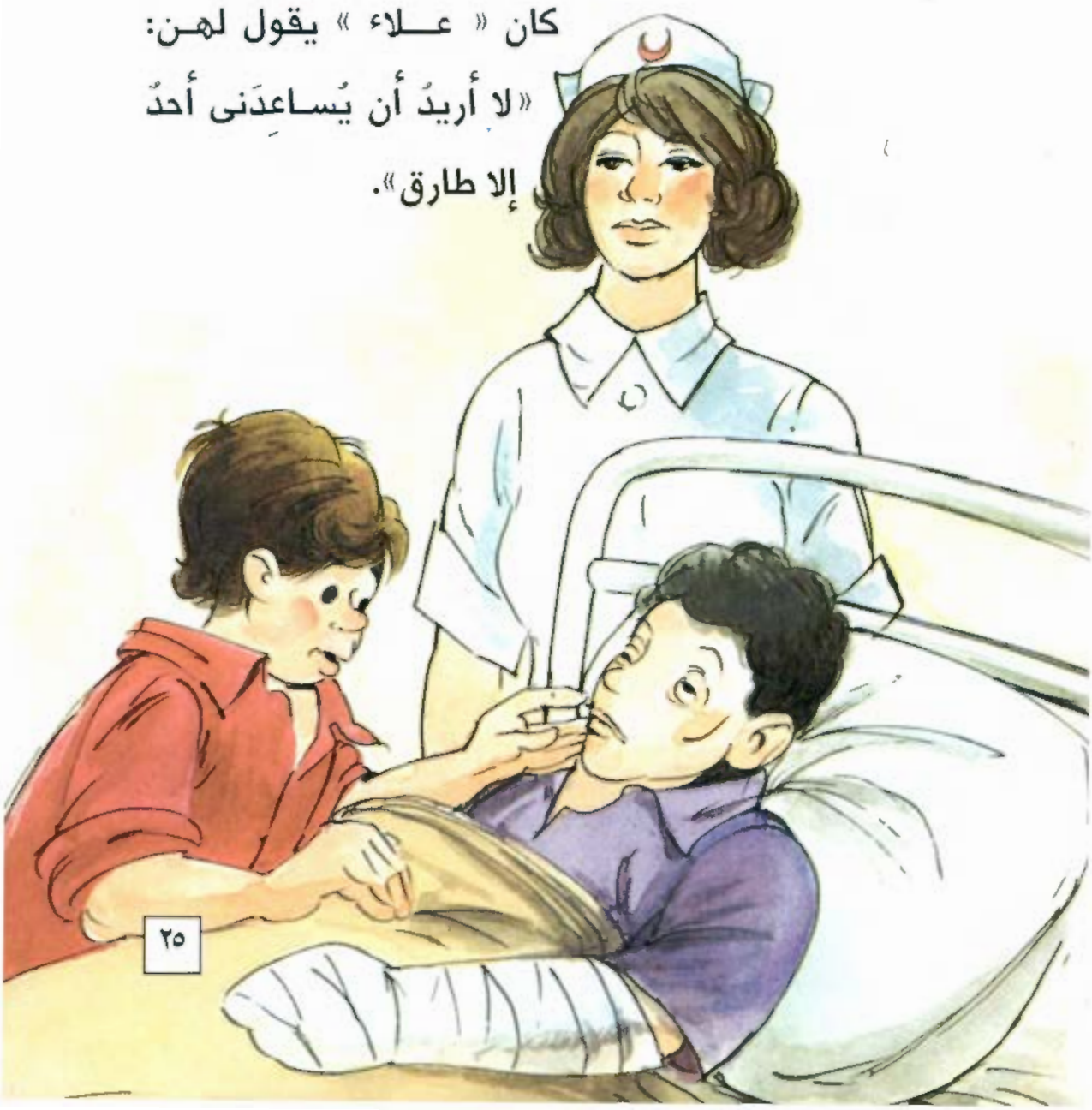

وعادَتْ أمُّ علاء من المستشفى لتقولَ لبقيةِ إخوتِه: كُنَّا نظنُّ أن «علاء» هو صاحبُ الفضلِ فى تقدُّمِ حالةِ طارق، وتمكُّنِه من الاندماجِ مع بقيةِ زملاءِ الفصل، وتنبُّهِه إلى كيفيةِ الاهتمامِ بملابسِه ومظهرِه وحركاتِه، لكننى أرى الآنَ

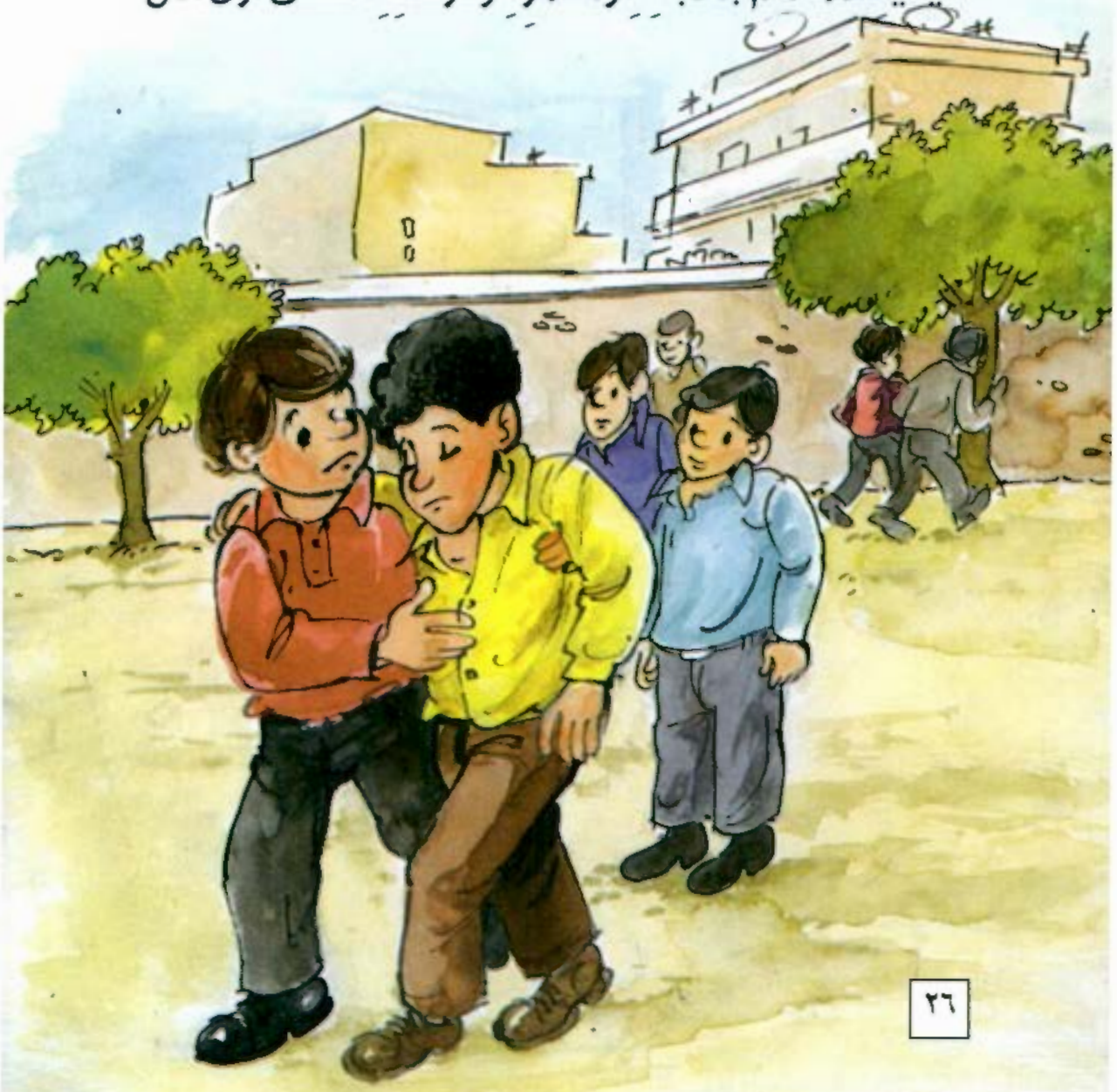

أن « طارق » هو الذى يتولَّى مسئوليةَ رفعِ الروحِ المعنويةِ لعلاء، بعدَ هذا الحادثِ الذى كادَ أنْ يذهبَ بحياتِهِ».

ولم يكنْ غريبًا ، بعدَ أسابيع ، أن يرى طلبةُ المدرسةِ زميلهم « علاء » يسيرُ مُستندًا إلى كتفِ زميلِهِ « طارق » فى الفناءِ، أو عندَ الخروجِ أو الدخولِ إلى الفصل.

كذلك لم يكنْ غريبًا أن يفوزَ « علاء » بجائزةِ الطالب المثالىِّ فى مدرستِهِ، وأن تفوزَ أحدُ رسومِ « طارق » بالجائزةِ الأولى فى مسابقةِ مهرجانِ القراءةِ للجميع.

ليلة مظلمة
فى نهاية شهر العسل

فى طابورِ المدرسةِ، بعدَ «فسحةِ» السَّاعةِ العاشرةِ، وقفَ يوسفُ أفندى وكيلُ المدرسةِ أمامَ الطابورِ، وقالَ :

«غدًا سنحرصُ جميعًا أنْ نأتِىَ قبلَ ميعادِ طابورِ الصباحِ، لنشتركَ كلُّنا فى الترحيبِ «بمستر جراى» مديرِ المدرسةِ. إنه سيعودُ الليلةَ مع «مسز جراى» من إجازتِهِ فى الخارجِ».

وكنا نعرفُ أن «مستر جراى» قد سافرَ منذُ شهرٍ إلى

قبرصَ، ليقضيَ هناك شهرَ العسل، بعدَ زواجِهِ من «مس كيت»، مُدرِّسةِ اللغةِ الإنجليزيةِ.

وكنا نظنُّ أن قبرصَ هذه بعيدةٌ جدًّا، فنحن لم نسمعْ اسمهَا إلا بمناسبةِ سفرِ مديرِ المدرسةِ الإنجليزيِّ إليها.

وفى صباحِ اليومِ التالى، حاوَلْنا أن نكونَ مُتواجدينَ بالمدرسةِ قبلَ الثامنةِ صباحًا بدقائقَ.

ودقَّ جرسُ الدخولِ، فوقَفْنا فى الطوابيرِ، نحن تلاميذَ المدرسةِ الإنجليزيةِ بجزيرةِ الروضةِ.

ومضَتْ دقائقُ، لم يظهرْ خلالَها مُديرُ المدرسةِ الإنجليزىُّ ولا وكيلُ المدرسةِ المصرىُّ.

ودخلَنا إلى فصولِنَا تحتَ إشرافِ المُدرِّسينَ، ونحنُ نتساءلُ: «هل تأخَّرَ «مستر جراى» وعروسُهُ عن الوصولِ إلى مِصْرَ؟!».

ولم نجرُؤْ نحن تلاميذَ السنةِ الرابعةِ الابتدائيةِ، على أن نسألَ المدرِّسينَ، ولم يتطوَّعْ أىُّ مُدرِّسٍ بأن يقولَ شيئًا.

لكننى فوجئْتُ فى منتصفِ الحصةِ الأولى، بيوسف أفندى وكيلِ المدرسةِ، يستدعينى إلى غرفتِهِ.

وقفْتُ أمامَهُ أنتظرُ، لأعرفَ ماذا يُريدُ منِّى.
وبغير مُقدِّماتٍ سألَنى: «بالأمس، بعدَ انتهاءِ الدراسةِ، هل انصرفْتَ مباشرةً إلى البيتِ؟».

أجبْتُ: «لا.. كنا نلعبُ الكرةَ الطائرةَ فى فِناءِ المدرسةِ».

سألَنى: «هل كانَ معكم زميلُكَ فتحى؟».

وفتحى هو الزميلُ الذى يجلسُ على المقعدِ المُجاورِ لى فى الفصل، وقد اعتَدْنا أن نسيرَ معًا مسافةً فى الطريقِ المُشتركِ إلى بيوتِنا، وكان طبيعيًّا أن أتذكَّرَ بوضوحٍ أنه كانَ معَنا.

وفى تدقيق، عادَ وكيلُ المدرسةِ يسألُ: «هل كانَ يلعبُ معكم، أم كانَ يكتفى بالفرجةِ ومتابعةِ اللعبِ؟».

وحاولْتُ أن أتذكَّرَ بوضوحٍ، وأخيرًا قُلْتُ: «أحيانًا كانَ يلعبُ، وأحيانًا كانَ يتفرَّجُ».

وعادَ وكيلُ المدرسةِ يسألُ فى إلحاحٍ: «هذه نقطةٌ مُهِمَّةٌ جدًّا.. لابدَّ أن تتذكَّرَ بدقَّةٍ».

ووجدْتُ ذهنى يشردُ بعيدًا عن هذا الاستجوابِ، فلم أردَّ.

سألَنى فى حدَّةٍ: «أنت سرحانُ.. ما الذى تُفكِّرُ فيه؟».

قلتُ: «لم أكنْ أظنُّ أنه من الضرورىِّ أن أتذكَّرَ كلَّ هذهِ التفَاصيلِ».

قالَ لى فى اتهام: «أنت تتهرَّبُ من الإجابة!!».

وقد فوجئتُ بهذه اللهجة المتحاملة، فأجَبْتُ فى سرعة وبغير تردُّد، كأنما لأنفِىَ اتهامًا مجهولاً يُريدُ الوكيلُ أن يوجِّهَهُ إلى صديقى وزميلى: «بل كانَ يلعبُ معنا طوالَ الوقت!».

وعادَ وكيلُ المدرسةِ يسألُنى: «هل كانَ تحتَ نَظَرِكَ طوالَ الوقتِ، إلى أن غادَرْتُما المدرسةَ للعودةِ إلى بيوتكما؟!».

كانَ السؤالُ غريبًا: والإلحاحُ من جانبِهِ لمعرفةِ الإجابةِ أكثرَ غرابةً!!

لذلك فإننى فى هذه المرةِ لم أفكّرْ ولم أتردَّدْ، فقد أحسسْتُ أن هناك خطرًا يقتربُ من صديقى.

أجبْتُ فى سرعةٍ وتأكيدٍ: «لقد ظلَّ معى طوالَ الوقتِ، لم يُفارقْنى، إلى أن عُدْنا إلى بيوتِنَا».

وتأمَّلَنى وكيلُ المدرسةِ طويلاً، كأنما يحاولُ أن يتعرَّفَ على مدى الصدقِ والدقةِ فى إجابتى.

ووجدْتُ نفسى أواجهُ عينَيْهِ فى ثباتٍ، مما اضطرَّهُ أن يقولَ لى: «ارجعْ إلى فصلِكَ».

• • •

وفى غرفةِ الدراسةِ، لم أجدْ زميلى فتحى فى مقعدِهِ بجوارى.

ومرَّتِ الحصَّةُ الأولى والثانيةُ، ولم أرَهُ إلا بعدَ انتهاءِ الفسحةِ الأولى. وجدْتُهُ يجلسُ بجانبى صامتًا.

انتهزْتُ فرصةً كان فيها مُدرِّسُ اللغةِ العربيةِ يكتبُ شيئًا على السبورةِ، وسألْتُ فتحى: «أين كنتَ؟».

وارتسمَتْ على شفتَيْهِ ابتسامةٌ غريبةٌ وهو يقولُ: «هل عرفْتَ ماذا حدثَ بالأمس؟!».

قلْتُ: «لم يحدثْ شىءٌ إلَى أنْ غادَرْنا المدرسةَ؟».

قالَ فتحى: «عندما وصلَ «مستر جراى» وعروسُهُ مع حلولِ الظلامِ إلى بيتِهما بالدورِ الثانى من المدرسةِ، ومعَهما يوسفُ أفندى وَكيلُ المدرسةِ، وجدوا أنفسَهُم فى ظلامٍ دامسٍ. واكتشفوا، وقد ملأهم الغيظُ، أن التيارَ الكهربائِىَّ مقطوعٌ عن المدرسةِ كلِّها».

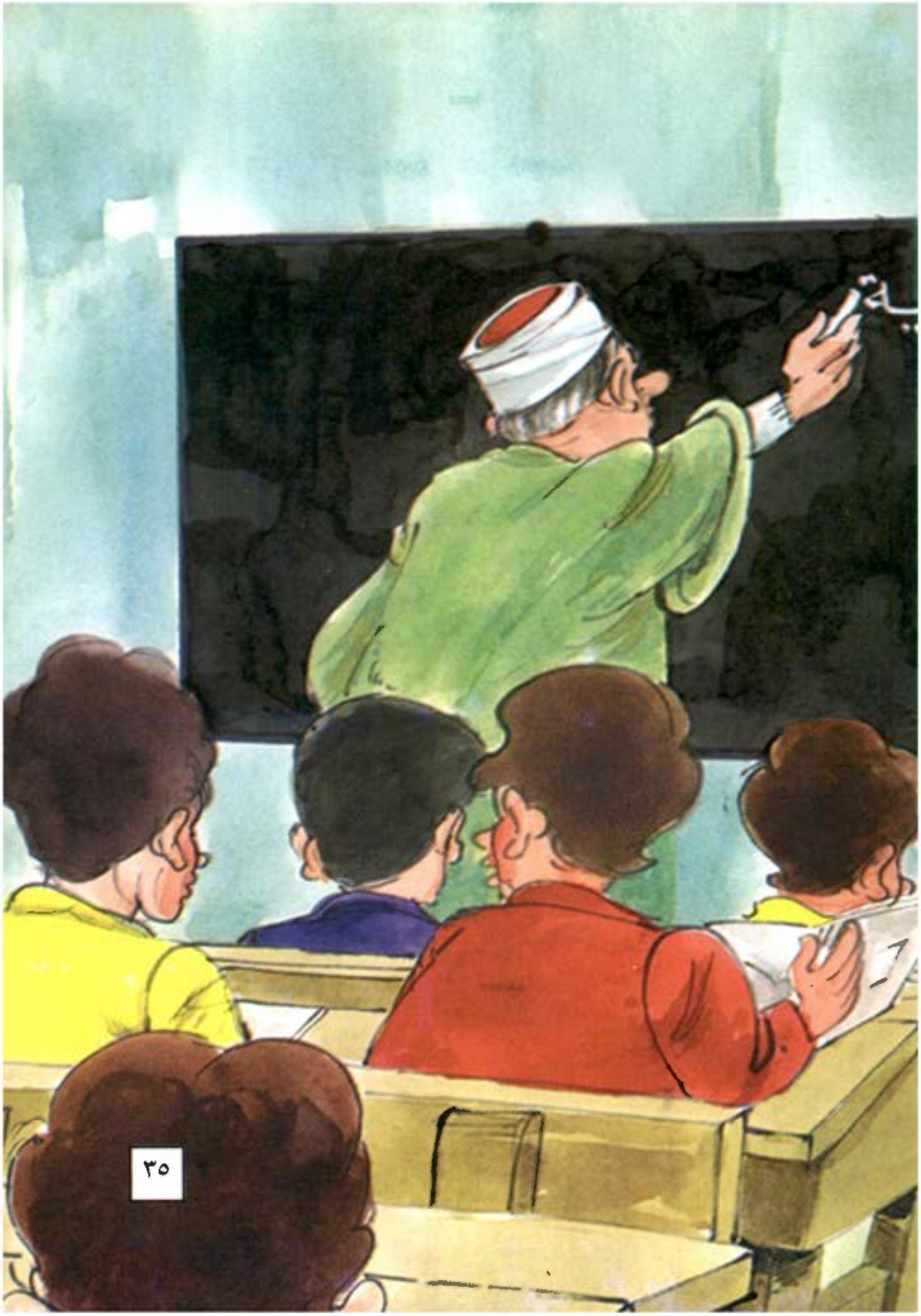

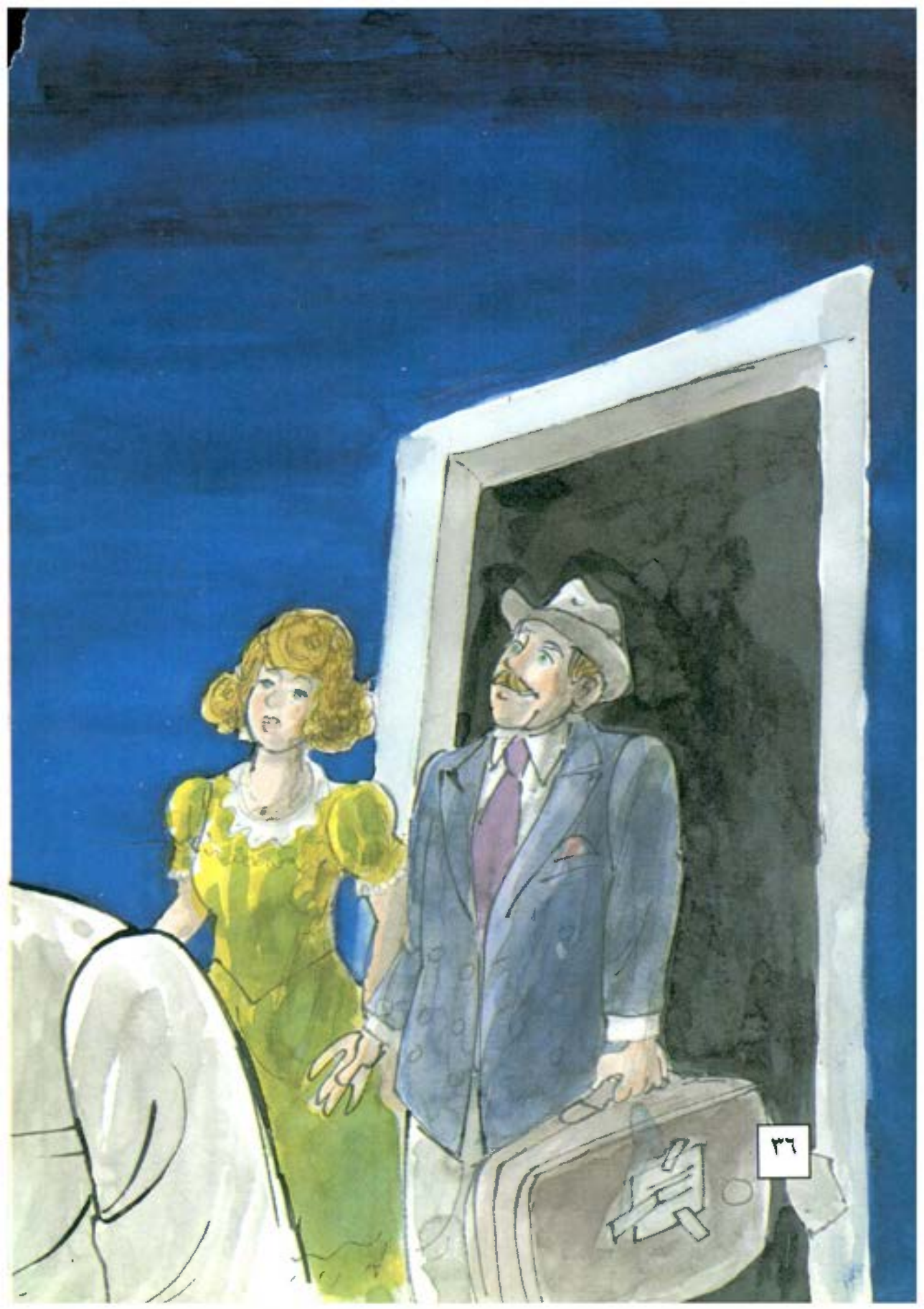

سألْتُهُ فى براءة: «وما علاقتُنا نحنُ بهذا الاستقبالِ الخَالِى مِنَ الترحيبِ، للرجلِ الإنجليزىِّ بعد عودتِهِ من شهرِ العسل؟».

قالَ فَتحى: «لقد اكتشفوا أن هناك مَن انتزعَ بريزةَ الكهرباءِ الرئيسيةَ الخاصةَ بالمدرسةِ كلِّها. وَظَلُّوا طويلاً يبحثونَ فى الظلام عن شموعٍ أو بطارياتٍ يدويةٍ، والمدُيرُ

الإنجليزىُّ مع زوجتِه يقفان فى قلق على «بسطة» السُّلَّم، وسطَ حقائبهما، لا يعرفانِ ماذا يفعَلان، ولا يجرؤان علىَ دخولِ شقتِهما، خوفًا من مفاجآتٍ غيرِ مُتوقَّعة!!».

قلتُ: «ومَنْ هو يا تُرَى الذى نزعَ بريزةَ الكهرباءِ؟ قالَ لى فتحى: يظنونَ أن أحدَ تلاميذِ المدرسةِ هو الذى فعلَ ذلك، كنوعٍ من الترحيبِ، بعد حادث ٤ فبراير الذى حاصرَتْ فيه الدباباتُ الإنجليزيةُ قصرَ الملكِ».

قلتُ لفتحى:« ولماذا نتعرَّضُ لهذا الاستجوابِ؟! لقد كنْتَ معى أمسِ بعدَ انتهاءِ الدراسةِ، إلى أن غادَرْنا المدرسةَ معًا».

قالَ فتحى:« يظنُّ وكيلُ المدرسةِ أننى أنا الذى نزعْتُ البريزَة، وأخفَيْتُها».

وفجأةً تذكرْت أن أغلفةَ كُرَّاساتِ فتحى حافلة بعباراتٍ مثل «يسقطُ الإنجليز»، و«اخرجوا من بلادِنا». وأنه كثيرًا ما كانَ يحكى لنا عن اشتراكِ أخيه الأكبرِ فى مظاهراتِ

يسقط الاستعمار
إرشادات
يسقط الاستعمار

المدارسِ الثانويةِ ضدَّ الوجودِ الإنجليزىِّ فى مِصْرَ.

قلْتُ له، كأنما أحميه: «لكننى مُتأكّدٌ أنكَ كُنْتَ معى!».

قالَ فى تأكيدٍ شابَتْهُ لهجةٌ غامضةٌ: «طبعًا كنْتُ معَكَ!!».

• • •

وعندما عادَ وكيلُ المدرسةِ يستجوبُنى مرةً ثانيةً فى صباحِ اليومِ التَّالى، كنتُ أعرفُ جيدًا الجانبَ الذى يَجبُ أن أقفَ معه، فقلْتُ فى حماسٍ وبغَيْرِ تردُّدٍ: «لقد ظلَّ فتحى معى طولَ الوقتِ بعد انتهاءِ اليومِ الدراسىِّ، إلى أن انصَرَفْنا معًا. وأنا على استعدادٍ لأن أشهدَ بهذا أمامَ أىِّ مخلوقٍ!!».

قالَ لى وكيلُ المدرسةِ قبل أن أعودَ إلى فصلى : «لولا شهادتُكَ هذه ، لتأكَّدْتُ أن فتحى هو الذى جعلَ «مستر جراى» يُقابلُ تلك الليلةَ السوداءَ عند عودتِهِ من شهرِ العسل!».

• • •

ومرَّ ستة عشرَ عامًا، كنت كلما تذكَّرْتُ خلالها ذلك الموقفَ، أسألُ نفسى: «هل يُمكِنُ أن تكونَ ذاكرتى قد

خانَتْنى، وأنَّ فتحى قد غابَ عنى لحظاتٍ نزعَ فيها بريزةَ الكهرباء؟».

ثم أعودُ لأقولَ لنفسى: «لَيْتَهُ كان هو الذى فعلَها!!».

ورأيتُ فتحى بعد أحداثِ العدوانِ الثلاثىِّ على مِصْرَ سنة ١٩٥٦، وبعدَ رحيل آخر جندىٍّ إنجليزى من بورسعيدَ بعدَ فشل ذلك العدوانِ، الذى تآمَرَتْ علينا فيه إنجلترا وفرنسا وإسرائيل.

وبغير مُقدِّمات وجدْتُهُ يسألُنى: «هل تتذكَّرُ بريزةَ الكهرباءِ، التى أغرقَتْ المدرسةَ فى الظلام يومَ عودةِ مديرها الإنجليزىِّ من شهرِ العسل؟».

قلْتُ له: «وأذكرُ دفاعى القوىَّ عنكَ».

قالَ لى فى ابتسامةٍ تحملُ معنى الانتصارِ: «هل كنتَ تعرفُ أننى أنا الذى أخفَيْتُ بريزةَ الكهرباءِ؟».

ونظرْتُ إليه فى ثباتٍ، لأتأكَّدَ مما يقولُ، ولم أقُلْ شيئًا.

وأكملَ صديقى فتحى يقولُ: «من حقّنا الآن أن نقولَ، أننا شارَكْنا فى مقاومةِ الوجودِ الإنجليزىِّ فى مِصْرَ، ونحنُ لانزالُ نرتدى البنطلونَ القصيرَ، بالمدرسةِ الإنجليزيةِ الابتدائيةِ بجزيرةِ الروضةِ!».

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٢٠٥٢١
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6405-9

٧/٢٠٠٢/٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)